التفسير بين الصوفية والباطنية:

- دراسة في الإشارات والمعاني -

أ. بلختير بومدين
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة أبي بكر بلقا يد/ تلمسان

مقدمة:

لقد نزل القرآن الكريم بلغة قوم يفهمونه دون البحث في معاني ألفاظه وعباراته؛ لذا كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتثلون لأمر الآية تطبيقا دون اللجوء إلى شرحها والغوص في معانيها، ودون بذل جهد في تفسيرها، ما عدا بعض الآيات التي كان لا بد لها من راسخين في العلم يعلمون تأويلها؛ لذا نجد من الصحابة من عرف بالتفسير دون غيره كابن عباس رضي الله عنه مثلا، أما أغلب الآيات فكان تفسيرها بالنسبة لعامة الناس في زمن النبوة سهلا وفق ما ألفوه من ذلك الكلام على الفطرة والسليقة.

ولكن لما تفشى اللحن في كلام العرب، ودخل فيه ما ليس منه، وتشعبت أمور الدنيا وقصرت الأفهام عن إدراك مراد الله تعالى من الآيات، تصدى لعلم معرفة معاني القرآن الكريم رجال راسخون في العلم، وأغلقوا الباب في وجه من أراد الخوض في هذا العلم دون توفر شروط الخوض فيه بوضع ضوابط لمن أراد التفسير أجملت في خمسة عشر ضابطا، كانت كالمقياس الذي يرجع إليه قبل تفسير آيات كتاب الله تعالى.

ومع ذلك كله ظهرت تفسيرات مختلفة للقرآن الكريم بعد عصر النبوة وعصر الصحابة منها ما كان موافقا للشروط التي وضعها علماء التفسير ومنها ما لم يكن كذلك بل كان موافقا لرغبات وأهواء أصحابها، من أجل ملك أو زعامة أو تغيير دين ربما وهذا لا يكون من مسلم بطبيعة الحال.

فظهرت تفسيرات عدة للقرآن الكريم وكل تفسير اختصت به طائفة عن غيرها، وعرفت به على حسب مرجعياتها الفكرية والدينية، فكانت هناك تفاسير الفلاسفة والشيعة والمعتزلة والصوفية والباطنية...

وارتأيت في هذه الوريقات أن أكشف الغطاء عن نوعين من أنواع التفاسير وهما يظهران لأول وهلة أنهما بنفس المعنى أو يتلاقيان في نقطة مشتركة تجمعهما، وهذان التفسيران هما: التفسير الإشاري عند الصوفية، والتفسير الباطني، وذلك ببيان معنى وحقيقة كل منهما، وأن التفسير كيفما كان لا بد له من شروط حتى يُقبل وإلا لكان تفسيرا منطلقه الهوى والتشهي.

ولابد قبل البدء في ذلك من بيان معاني المصطلحات التي تدور حول ما نحن بصدد بيانه**تعريف التفسير:**

جاء في لسان العرب:

المعنى والتفسير والتأويل واحد، وعنيت بالقول كذا أردت ومعنى كل كلام مقصده.

في اللغة: الإيضاح والتبيين ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان: 33]، ولم تذكر كلمة التفسير في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع.

في الاصطلاح:

علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية(1).

وجاء في البرهان: التفسير علم يفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج إلى معرفة أحكام النزول والناسخ والمنسوخ(2).

تعريف التأويل:

من حيث اللغة يأخذ معنى التفسير، يقول صاحب القاموس المحيط : من آل إليه أولا ومآلا : رجع، وأول الكلام تأويلا وتأوله: دبره وقدره وفسره[3].

واختلفوا في معنى التأويل فقالوا هو مساو للتفسير وهو قول المتقدمين مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، وقوله تعالى: وما يعلم تأويله إلا الله.

أما المتأخرين فاشتهر عنهم القول بأن التفسير بيان المعاني التي تستفاد من وضع العبارة والتأويل هو بيان المعاني التي تستفاد بطريق الإشارة[4].

والإشارة في اللغة تأتي بمعنى الإيماء والإيحاء، وهي عند الصوفية عبارة عن لطائف لاحت في قلوبهم من أنوار إلهية بها بينوا بعض معاني آيات القرآن الكريم.

ويميز بعض الصوفية ومنهم ابن عجيبة بين التفسير والإشارة فيقول التفسير هو العلم الباحث عن معاني القرآن الظاهرة إفرادا وتركيبا ... وقيدناه بالمعاني الظاهرة احترازا عن فهوم أهل الإشارات؛ فإنها ليست بالتفسير المتعارف بل هي خارجة عما تؤديه العبارة[5].

التفسير الإشاري:

هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضا.

قال الزركشي: كلام الصوفية في تفسير القرآن قيل إنه ليس بتفسير، وإنما هو معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة، كقول بعضهم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: 123] ، إن المراد النفس، يريدون أن علة الأمر بقتال من يلينا هي القرب، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه[6].

التفسير الباطني:

الباطنية قوم رفضوا الأخذ بظاهر القرآن وقالوا: للقرآن ظاهر وباطن، والمراد منه باطنه دون ظاهره ويستدلون بقوله تعالى ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: 13] وهم فرق متعددة منهم:

القرامطة:

نسبة إلى حمدان قرمط إحدى قرى واسط وهو الذي تزعمهم فيما ذهبوا إليه.

الإسماعيلية: نسبة إلى إسماعيل أكبر أولاد جعفر الصادق وذلك لأنهم كانوا يعتقدون الإمامة فيه وقيل إنهم سموا إسماعيلية لانتسابهم إلى محمد بن إسماعيل.

السبعية: نسبة إلى عدد السبعة ذلك لأنهم يعتقدون أن في كل سبعة إماما يقتدى به.

الحرمية: نسبة إلى الحرمة وذلك لأنهم يستبيحون الحرمات.

البابكية: نسبة إلى زعيمهم بابك الخرمي الذي خرج بأذربيجان.

المحمرة: سموا بذلك للبسهم الحمرة.

ومن الأمثلة في تفسيراتهم الباطنية:

يقولون في تفسير قوله تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: 16] إن الإمام عليا ورث النبي في علمه، ويقولون معنى الجنابة أنها مبادرة المستجيب بإفشاء السر قبل أن ينال رتبة الاستحقاق، ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك، ومعنى الطهارة التبري من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام ومعنى التيمم الأخذ من المأذون إلى أن يشاهد الداعي الإمام، ومعنى الصيام الإمساك عن كشف السر، ويقولون إن الكعبة هي النبي والباب علي والصفا هو النبي والمروة علي ونار إبراهيم هي غضب النمرود عليه وعصا موسى هي حجته[7].

قد يظهر تقارب أو تداخل بين التفسير الإشاري والباطني من خلال ما ذكر في أن كلا التفسيرين ينظر إلى النص من جهة باطنه، وإليك بعض ما قاله العلماء في التفسير الإشاري وفي الفرق بينه وبين التفسير الباطني قبل إيضاح الفرق الجوهري بينهما وشروط قبول التفسير إذا كان بالباطن.

قال ابن الصلاح في فتاويه: وجدت أن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسر أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق التفسير، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر. قال ابن الصلاح: وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم إذا قال شيئاً من ذلك أنه لم يذكره تفسيرولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة، فإنه لوكان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وإنما ذلك منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير، ومع ذلك فيا ليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك لما فيه من الإيهام والإلباس(8).

قال النسفي في عقائده:

النصوص على ظاهرها والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد. قال التفتازاني في شرحه: سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها بل لها معان باطنية لا يعرفها إلا المعلم، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية. قال: وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تتكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان.

عن ابن عباس قال: إن القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون، لا تنقضي عجائبه، ولا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا، ومن أوغل فيه بعنف هوى: أخبار وأمثال وحلال وحرام وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء(9).

قال أبو حامد الغزالي:

ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعي البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب[10].

يظهر الفرق جليا بين التفسير الإشاري والتفسير الباطني من خلال أقوال العلماء السابقة الذكر، فالفرق الأول يظهر من المعنى المراد بالتفسير الإشاري والباطني، فالتفسير الإشاري ليس تفسيرا في الحقيقة ومن حيث مفهوم التفسير اللغوي والاصطلاحي كما يظهر ذلك من قول ابن الصلاح؛ بل هو مجرد مواجيد ولطائف لاحت في قلوب أهل التصوف بها بينوا بعض معاني آيات القرآن الكريم، وهذا المعنى لا ينطبق على التفسير على حسب ما عرف سابقا إذ التفسير كما سبق هو البحث في معاني القرآن الكريم من حيث دلالة آياته على المراد من قول الله تعالى على قدر الطاقة البشرية، أما التفسير عند الباطنية فهو بحث في معاني القرآن الكريم بحيث يعطى للكلمة معنى يُدَّعى بأنه هو المراد ولا يمكن أن تحتمل معان أخرى.

فرق آخر يظهر بين التفسير الإشاري والباطني هو أن المعنى الباطن في التفسير الإشاري لا يلغي المعنى الظاهر، بل يظل ظاهر النص هو الأصل في التفسير ويكون قبل الخوض في غمار النص القرآني، على عكس التفسير الباطني فإنه يلغي المعنى الظاهر ولا يعطي إلا معنى واحدا للكلام ويدعي أهله بأنه هو المقصود وليس ظاهر النص.

وبإعطاء أمثلة عن التفسير الإشاري يتضح ما قيل آنفا:

أمثلة عن التفسير الإشاري:

في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: 22]، قال التستري: أندادا أي أضدادا، وأكبر الأضداد النفس الأمارة بالسوء، المتطلعة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [النساء: 36] يقول التستري بعد أن ذكر التفسير الظاهر لهذه الآية: وأما باطنها فالجار ذي القربى هو القلب والجار الجنب هو الطبيعة، والصاحب بالجنب هو العقل المقتدي بالشريعة، وابن السبيل هو الجوارح المطيعة لله[11].

فهذه المعاني إذا قلنا أن من قالوها أرادوا بها تفسير الآيات القرآنية وبيان معانيها التي تحمل عليها لا غير لكان ذلك بعينه هو مذهب الباطنية؛ ولكن هذه المعاني يذكرونها على أنها إشارات بعد أن يذكروا التفسير الظاهر للآية وهذا ما يظهر من قول التستري: "..وأما باطنها.."

ويمكن الرجوع إلى كتب التفسير الإشاري لمزيد من الأمثلة ونذكر من بينها: تفسير القشيري، تفسير النيسابوري، تفسير الألوسي، تفسير التستري، تفسير محي الدين بن عربي...

من خلال كل ما ذكر يمكن أن نبين شروط التفسير الإشاري حتى يكون مقبولا وحتى لا يلتبس بالتفسير الباطني.

شروط التفسير الإشاري[12].

1/ ألا يتنافى وما يظهر من معنى النظم الكريم

2/ ألا يُدَّعى أنه المراد وحده دون الظاهر

3/ ألا يكون تأويلا بعيدا سخيفا (كقولهم في قوله تعالى " إن الله لمع المحسنين" بأن لمع فعل ومفعوله المحسنين).

4/ ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي، وهذا الشرط يقتضي أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.

وهذه الشروط هي فقط لعدم إنكاره ولاعتباره وليس لوجوب اتباعه والأخذ به.

خاتمة:

التفسير الإشاري ليس تفسيرا في الحقيقة لأنه لا يبين المعنى المراد من الآية؛ بل هو مجرد لطائف ومواجيد وإشارات تظهر لأهل التصوف تنبئ عما في قلوبهم، فكما يقول ابن القيم في مدارج السالكين: وإذا امتلأ القلب بشيء وارتفعت المباينة الشديدة بين الظاهر والباطن: أدت الأذن إلى القلب من المسموع ما يناسبه وإن لم يدل عليه ذلك المسموع ولا قصده المتكلم ولا يختص ذلك بالكلام الدال على معنى بل قد يقع في الأصوات المجردة.

قال القشيري : سمعت أبا عبدالله السلمي يقول: دخلت على أبي عثمان المغربي ورجل يستقي الماء من البئر على بكرة فقال: يا أبا عبد الرحمن أتدري إيش تقول هذه البكرة؟ فقلت: لا فقال تقول: الله الله.

يقول ابن القيم: وهذا السماع الروحاني تبع لحقيقة القلب ومادته منه فالاتحاد به يظن به السامع: أنه أدرك ذلك المعنى لا محالة من الصوت الخارجي وسبب ذلك اتحاد السمع بالقلب(13).

أما التفسير الباطني للنص فلا يعترف بالمعنى الظاهر بل يجعل للنص باطنا فقط وهو المعنى المراد دون غيره وبالرجوع إلى الخلفيات الفكرية لهذا التفسير يتضح جليا أنه ظهر نتيجة مرجعية فكرية سياسية وعقائدية، ولما رأى أصحاب هذا التفسير أن الكثير من الآيات القرآنية تخالف مزاعمهم لجؤوا إلى هذا النوع من التفسير دون مراعاة لشروط التفسير التي لا بد أن تتوفر حتى يكتسب المفسر أهلية الخوض في معاني آيات القرآن الكريم.

الهوامش

(1) الزرقاني، مناهل العرفان، تح: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1995، 6/2.

(2) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، 169/4 .

(3) الفيروزآبادي، التفسير المحيط، مادة [آل].

(4) في معنى التفسير والتأويل ينظر: السيوطي، المرجع السابق، 167/4.

(5) حسن عزوزي، الشيخ أحمد بن عجيبة ومنهجه في التفسير، وزارة الأوقاف، المغرب، 2001، 12/2.

(6) الزرقاني، المرجع السابق، 66/2

(7) الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الحديث، القاهرة، ط1، 2005، 212/2.

(8) السيوطي، المرجع السابق، 195/4.

(9) السيوطي، المرجع نفسه، 195/4.

(10) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 343/1.

(11) الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ط6، 1995، 388/2.

(12) ينظر في شروط التفسير الإشاري: الزرقاني، المرجع السابق، 68/2.

(13) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، تح: رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2001، 1 / 264